قضايا الأدب والأدباء

تهمتان بلا دليل

اصبح من الشائع ان يسمع انصار التجديد في الشعر اتهامات ينشرها اعداء التجديد هنا وهناك مستغلين اقصد المحافظين الهفوات التي يقع فيها الشعراء المجددون قدر الامكان . ولعل من اخطر الاتهامات تلك التي وجهها « عباس محمود العقاد » في كتابه « اللغة الشاعرة » ،لان العقاد يحاول ان يبرهن علميا ومنطقيا على الضرر الذي يلحقه تجديد الشعر باللغة العربية اولا ، ولانه رئيس لجنة الشعر في المجلس الاعلى للاداب والفنون في مصر ثانيا ، ولمكانته الفكرية التي احتلها عن جدارة خلال كفاحه الادبي الطويل اخيرا .

كل هذه الاسباب تجعل اتهامات العقاد خطيرة ، وتجعل مناقشة هذه الاتهامات مسألة لازمة وواجبة.وعلينافي البدء ان نتذكر ان العقادلعبدورا سيظل مذكورا على كل حال ـ في تجديد الشعر نفسه ، فنحن لا نزال نتذكر حملاته العنيفة على الشعر الكلاسيكي الذي كان ينشده شوقي مثلا ، كما نتذكر بمزيد من الوضوح مطالبة العقاد للشعراء الكلاسيكيين بملاءمة ذوق العصر.ولهذا يكونمن الغريب جدا ان يقف العقاد نفسهوهو الذي سبق له ان حمل لواء التجديد ـ معترضا التجديد في الشعر بحجج ليس لها ما يبررها على الاقل . !اذا اذن يقف العقاد مثل هذا الموقف ؟

ينبغي ان نلاحظ هنا ان العقاد لا يقف محافظا في مسالة الشعر فحسب ، بل ان آراءه في الاجتماع والسياسة والفلسفة وحتى التاريخ هي آراء محافظة ، على الاقل في السنوات الاخيرة من حياته الادبية. لقد تبدل اذن « الكاتب الجبار » ـ وليس هذا اللقب من عنديات وانما اطلقه عليه المرحوم سعد زغلول ـ او قل انه ابدل آراءه الاولى وسار في الطريق المعاكس للتجديد بتاثير ظروف خاصة ، ولكن يجب ان نعترف هنا ان هذه الظروف الخاصة لم تجبر العقاد على تبديل طريقه ، وانما هو الذي ابدل هذه الطريق باخرى . والان ، ما هو راي العقاد فيالشعر الجديد ؟

يقول في كتابه « اللغة الشاعرة » : « ان الدعوة الى الغاء الاوزان ذات البحور والقوافي في اللغة العربية لا تأتي من جانب سليم ولا تؤدي الى غاية سليمة ، فلا يدعو اليها غير واحد منواثنين : عاجز عن النظمالذي استطاعه الشاعر العامي في نظم القصص المطولة والملاحم التاريخة من امثال السيرة الهلالية وسيرة الزير وغيرها من السير المشهورة المتداولة، او عاجز عن النظم الذي استطاعه الشاعر العامي والشاعرة العامية في نظم اغاني الاعراس ونواح الماتم وامثال الحكمة والنصيحة على السنة المتكلمين باللهجات الدارجة ... فان لم يكن نقص الملكة الفنية سبب العجز عن اوزان الشعر العربي والدعوة الى ابطال هذه الاوزان فهو اذن عمل من اعمال الهدم الصراح عن سوء نية وخبث طوية » نرى هنا ان العقاد يحصر المجددين في الشعر في فئتين : الاولى فئة عاجزة عن مجاراة الشعر العمودي اي انها لا تملك القدرة على كتابة الشعر بالطريقة التقليدية ، والفئة الثانية تهدف الى هدم اللغة العربية وفنها الشعري الجميل تحت ستار التجديد .

وانا لا استطيع الا ان اقف عند النقطة الاولى باندهاش كبير ، ذلك لان العقاد ليس من اولئك الكتاب الذين تعوزهم المراجع او المصادر حتى يتعذر عليه معرفة ما اذا كان الشعراء المجددون قد كتبوا شعرا موزونا مقفى ام لم يكتبوا . كما ان العقاد نفسه يعرف شخصيا (ولا اشك في هذا مطلقا ، بل اجزم به في تأكيد قاطع) عددا من الشعراء المجددين، ولا بد انه قرأ لهم شعرا موزونا مقفى . وعلى كل حال فان قول العقاد هذا لا يبعث على الدهشة فقط ، بل يبعث ايضا على الاحتجاج الشديد، لانه يتناسى جميع الحقائق التي تبرهن بما لا يقبل الجدل على الخطأ والخطل الشديدين في هذا الراي ، ذلك لان اشعار السياب ونازك الملائكة والصبور وسعدي يوسف الموزونة المقفاة اكثر جودة من اشعار العقاد نفسه ، حتى ليمكن القول ان اشعار العقاد تبدو ساذجة بالقياس الى اشعار الشعراء المجددين هؤلاء (١) . ومن الصعوبة جدا المقارنة بين اشعار العقاد وبين اشعار نزار قباني الموزونة المقفاة ، والدليل على ذلك ان شهرة العقاد ككاتب ومفكر اكثر من شهرته كشاعر ، اما نزار قباني فلا يشك حتى العقاد نفسه في شاعريته . وكذلك القول بالنسبة لفدوى طوقان ، فان ديوانها الاول « وحدي مع الايام » يبرهن على المستوى الشاعري الرفيع الذي بلغته ، بل ان في ديوانها الاخير « اعطنا حبا» قصائد موزونة مقفاة لا تقل روعة ـ ان لم تكن تزيد ـ عن قصائد الشعراء العموديين المتعصبين للتقاليد الشعرية الموروثة .

ومن بين الشعراء الذين حملوا قصائدهم مهمة قومية ، بالاضافة الى حفاظهم على التقاليد الشعرية القديمة ، الشاعر السوري سليمان العيسى ولكنهابتدا اخيرا في كتابة قصائد ينحو فيها منحى الشعر الحر ، فهل يمكن ان نعتقد ان ميله الى كتابة الشعر الحر دليل على عجز منه عن التعبير بالشكل القديم ؟ اظن ان كلا ودليلي على ذلك انه استطاع كتابة قصائد عمودية خلال فترة طويلة زمنيا ، فليس من المعقول ان يعجز في النهاية عن كتابة قصائد جديدة من الشعر العمودي.

ويمكن ان تتفرع من هذه التهمة ـ اي تهمة العجز ـ تهمة اخرى، هي فقدان الشعر الحر للموسيقى ، ولا ريب ان بعض المتحاملين على تجديد الشعر يحاولون بكل طريقة ممكنة البرهنة على ان الشعر الحر يفتقد الموسيقى . وهذه مغالطة ، لان « الجديد » في « الشعر الجديد» هو تطور الموسيقى بالدرجة الاولى ، واعتقد اننا لسنا بحاجة الى ان نكرر في كل مناسبة ان الوحدة الهندسية (او الموسيقية) للشعر الحر هي التفعيلة ، وان الشاعر حر في اختيار العدد المناسب من التفعيلات التي تكفي للتعبير عن قرارة شعوره . ولكن هذه الحقيقة لا تؤخذ مأخذ الجد من قبل اعداء التجديد ، لانهم يرون ان التقاليد الشعرية الموروثة مقدسة لا يجوز المساس بها ، فالتجديد ـ وهو مساس بالتقاليد الموروثة بلا ريب ـ مرفوض سلفا من قبلهم ، وايما رأي مصيب ومقنع يعتبر في نظرهم لغوا باطلا .

اما التهمة الثانية ، تهمة هدم اللغة العربية وهدم الفن الجميل ، فهي تهمة اشد غرابة من التهمة الاولى ، لان معنى هذه التهمة ان سائر الشعراء المجددين (من شعراء الموجة الاولى السياب والبياتي ونازك،الى شعراء الموجة الاخيرة ومنهم سليمان لعيسى) تعوزهم الوطنية الصادقة

---

(١) بشأن اشعار العقاد يراجع ما كتبه فقيد الادب مارون عبود عنها في كتبه النقدية الشهيرة .

والغيرة المخلصة للغة العربية ، فهل هذا جائز منطقيا وعمليا ؟ ثم ان القاء تهمة الهدم هذه يفترض وجوب تعاون هؤلاء الشعراء مع جهات غير عربية وذات اهداف استعمارية او ما شابه ذلك ، وهذا يتنافى مع واقع الحال ، فان قصائد السياب المجددة الاولى تحمل عاطفة وطنية صادقة وعاطفة انسانية نبيلة ، وكذلك القول عن سليمان العيسى (اخر الشعراء العموديين الذين استجابوا لذوق العصر) فان قصائده تحمل عاطفة قومية لا يشك في عدائها للاستعمار وغيرتها على لغة العرب وامانتها على امانيهم القومية . واخيرا – وليس اخرا – ماذا يقول العقاد ومناصروه في رايه في القصائد الكثيرة الغنية بالعاطفة القومية التي قيلت اثناء العدوان الاثم على مصر عام ١٩٥٦ ؟ اتكون تلك القصائد هادفة الى هدم اللغة العربية وهدم الفن الجميل حقا ؟ (١) وما هو رأي العقاد ومناصروه ايضا في القصائد الجديدة التي قيلت في ثورة الجزائر ؟

ان واقع الحال يقرر ان هذه التهمة التي قالها العقاد في اكثر من مناسبة ، وكررها اخرون بمناسبة ودونها ، ليست اكثر من تبرير ساذج لمعاداة الشعر الجديد ، تبرير يعوزه الدليل المنطقي والعملي معا. واذا حدث ان ظهر في هذا المجال شذوذ ، فان هذا الشذوذ ناتج اما عن سوء فهم لحركة التجديد او عن سوء نية مبيتة . ومثال سوء الفهم تلك « القصائد » السخيفة التي لا تزيد على اللغو والهذر والتي تنشر بين آن واخر في هذه المجلة او تلك ، اما سوء النية المبيتة فتتضح بجلاء في محاولات « شعراء » مجلة « شعر » اللبنانية ، والتي تهدف الى تقليد مدارس الشعر الغربية بلاوعي ولا تمييز بين الملائم وغير الملائم وكذلك تهدف الى قطع الصلة بالشعر العربي الكلاسيكي .

ايكون من المنطق اذن ان نأخذ الشذوذ ونصيره قاعدة عامة في هذا الصدد ؟ ايكون من المعقول ان نتناسى الحقائق الواضحة التي تبرهن على ضرورة التجديد في الشعر ونتمسك بأذيال شذوذ باهت لا يلبث ان يختفي اذا تيسر له نقاد عارفون بوظيفة الشعر وطبيعة تجديده؟

وبعد ، فان تهمة العجز وتهمة الهدم ، اللتين ناقشنا تفاصيلهما في السطور المتقدمة ، ستظلان تهمتين بحاجة الى برهان منطقي ودليل عملي ، وجميع الابواق التي تردد هاتين النغمتين سيظل الفشل يلاحقها دائما ، ما دامت هذه الابواق لا تزال تعيش على خيالات تتوهمها حقيقة مطلقة لا تقبل المناقشة .

الجمهورية العراقية – الحلة — **علي الحسيني**

(١) في غمار تلك الايام العصيبة ، اصدر العقاد في القاهرة كتابا عن « جحا » فقارن وتأمل !!

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش

قريبا :

في سلسلة المسرحيات العالمية

رؤوس الآخرين

مسرحية في أربعة فصول

بقلم

مارسيل إيميه

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

مسرحية رائعة يصور فيها الكاتب الساخر مارسيل ايميه القضاء الفرنسي وما يحيط به من فضائح . وقد قدم المؤلف للمحاكمة ، ولكن القضاء الذي هاجمه قد براه !! ..

منشورات دار الاداب